الروايات التاريخية الأندلسية بين الفن والواقع

دراسة مقارنة بين الأدبين العربي والأردي

Historical Novel about Spanish Era between Fiction & Reality

(A comparative study between Arabic and Urdu Literature)

غزاله شاهين*

ABSTRACT

Comparative study is one of the most important aspects of literary criticism in literature. It helps us to discover what differentiates the work of different writers in different literatures. It clarifies many important aspects which may have been left unnoticed while studying independently. It opens many vistas of literary research. In the present dissertation an effort has been made to compare *Jurj□ Zayd□n*, *M□r□f al Arnaw□t*, *Abdul Hal□m Sharar* and *An□yatull□h Al-Tamash* as historical novelists because most of these writers considered as pioneer of historical novels, while everyone is at top list in novel writing in respective country. The present work on a comparative study of historical novelists of Arabic and Urdu literature (about Spanish Era) may, perhaps, be the first research work in Arabic on four writers belonging to four different climates, cultures and origins by any University in Pakistan

In this research work you will find out, the similarities and differences in the narrative techniques of writers in their novels and how these writers creates a conformity between romance and real history through literary innovation. In what way they represent the distinctive individualities and civilizations of a particular era. What aspects of theme, characterization and various narrative techniques they use to make the historical novel an attractive and coherent representation of the social and political life. There is a certain connection and dependence on history but using imagination how they contributes to color the descriptive details with romantic flavor. You will find out whether these writers work subordinated to history or distorting history .

History tells us what really happens and fiction relates what can happen. In the historical novel the writer tries to create a coalition between history and fiction. In this research you will find that coalition.

***Keywords*:** *Hot Issue, Peace, Praiseworthy, Conciliation, Security*

* محاضره في البحث والتدريس بكلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية،إسلام آباد

يعيش الإنسان بين العسر واليسر، يتجشم صعابا في مسير الحياة ويقاسي عناء في إدراك مطلبه، فالحياة تتراوح بين السهولة والصعوبة، فلا تتم الحياة إلا بهما، يحيا الإنسان بينهما، ففي اليسر يكون الشكر وفي العسر يكون الصبر، والصراع بين هذين الأمرين أساس مزرعة الأدب أو منبِت الحب أو الكره بين إنسان وآخر، وفي إطار اختلاف الطبائع والمنازع تختلف الإنتاجات الشفوية والكتابية، ومن هنا يظهر أن كل إنسان يختلف عن أخيه في طباعه، وهذا الاختلاف لا يقف إلى هذا الحد بل يتجاوز دوائر النتاج والصناعة، دوائر الأدب والشعر، دوائر الإبداع والابتكار ولاسيما إذا كان الإنسان ليس بعادي بل يعيش في كيانه أديب يريد أن يظهر...

وكل إنسان يستطيع أن يحكي حكاية أو يقص قصة أو يحدّث حادثة، ولكن الأديب يتميز عن غيره بصفته مبتكراً لأنه يقدر على صبغ القصة أو الحكاية أو الحادثة صبغة أدبية، وتصوير الحادثة في أسلوب جذاب، فالقيمة الأدبية لا تقتصر على ضخامة العمل الأدبي أو القصصي، الحادثة الكبرى أو الصغرى بل إنها تأتي من مادة تصبح ملموسة بعد أن يتناولها الأديب، وتصبح مرموقة بعد أن يعالجها الكاتب.

ومن أروع الأمثلة لذلك الروايات التاريخية الموجودة في شتى لغات العالم فالكاتب يختار فترة معينة ثم يدرس الوقائع والأحداث التي كانت في تلك الفترة فيعرضها دون الخروج على عصرها، كالعصر الأندلسي، فكثير من الأدباء تأثروا بتاريخ الأندلس الزاهرة التي أنارت الدنيا بعلمها وفيضها فاختاروا موضوعات شتى من الفترة الأندلسية ثم كتبوا روايات عديدة من وجهة نظرهم في أساليب بارعة.

مفهوم الرواية:

قد عرّف الأدباء الرواية بأساليب عديدة، فمنها ما ذكره أنيس المقدسي، وقال:

"الرواية تكون طويلة وتقوم على حادثة رئيسية يتفرع عنها أو يتصل بها حوادث أخرى وهي مع توجيهها الفكري إلى بطل وبطلين تعرض لنا عدة أشخاص"[(١)].

أما الرواية بمفهومها الفني الحديث، فلم يطلع عليه الأدب العربي إلا في القرن التاسع عشر الميلادي وذلك بعد الاتصال بالآداب الغربية.

تحتوي الرواية على العناصر الأساسية، وهي: اللغة والحدث والشخصية والسرد والحوار والزمان والمكان.

والرواية لها أقسام عديدة، منها: الاجتماعية والعاطفية والنفسية والسياسية والعلمية والتاريخية، وهي تكرار الماضي في الحاضر.

(1) أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم الملايين بيروت- لبنان، ص: ٩٧٧

نشأة الرواية التاريخية العربية والأردية وتطورهما:

نشأت الرواية التاريخية بقواعدها الفنية الخاصة في الأدب الفرنسي، ولكن جذورها الجوهرية تعود إلى والتر سكوت الإنجليزي، وعندما رأى الأدباء المسلمون "ازدهار الروايات التاريخية في الآداب الأخرى وترجمتها إلى لغاتهم فاختاروا ذلك الفن للمحافظة على التاريخ الإسلامي، وفي ظل الاعتداءات الاستعمارية وما صحبها من أطماع مادية وحضارية نشطت (الكتابة التاريخية) لتقوم بدور كبير وخطير في الدفاع عن الحاضر المستباح بإحياء صورة الماضي المشرق، ليكون ملامح هذه الصورة الناصعة للتاريخ الإسلامي"(١).

قام الجيل الأول من الكتّاب بتقديم التاريخ في صورة قصة أو رواية تشمل حكايات مثالية وحقيقية تشويقاً للقراء وأهم كتاب في هذه المرحلة سليم البستاني وجرجي زيدان وفرح أنطون ويعقوب صروف وأمين ناصر الدين، أما الجيل التالي فقد توجّه إلى الماضي وركز مجهودات أقلامه على إحياء الماضي ومن أشهر الكتّاب والروائيين الذين أنتجوا كثيرا من الروايات التاريخية محمد فريد أبو حديد وعلي الجارم ومحمد سعيد العريان وعبد الحميد جودة السحار وعلي أحمد باكثير ونجيب محفوظ وغيرهم، تشمل روايات هؤلاء الكتّاب الكبار التاريخ الإسلامي العربي والتاريخ الفرعوني المصري.

أما الأدب الروائي الأردي فجذوره عميقة رغم حداثة عمره حيث ظهرت البذور الأدبية الفنية الأردية منذ تطور هذه اللغة ونمت وتطورت مع نموها وتطورها.

تنقسم الرواية الأردية إلى قسمين أساسين: القسم الأول هو ما يتعلق بالهند أو شبه القارة الهندية أي قبل ظهور دولة "باكستان" واستقلالها، فالروايات التي ظهرت في تلك الفترة كانت تحمل في طياتها موضوعات الفساد الاجتماعي والاضطرابات الداخلية والخارجية والمعارك العقدية وغيرها ولاسيما ما دارت بين المسلمين والهنادكة. والقسم الثاني من الرواية الأردية هو ما يتعلق بدولة حديثة العهد أي "باكستان" أو شبه القارة الهندية الباكستانية، فالروايات التي نمت وتطورت في ظل حُكْمِ هذه الدولة غلبت عليها النزعة الدينية والدعوية إلى حد كبير.

يقول بعض النقاد الأرديين إن أول رواية كُتِبَتْ في شبه القارة الهندية بمفهومها الفني هي: "***فسانہء آزاد***" (قصة الحرّ) للكاتب سرشار، ونشرت هذه الرواية للمرة الأولى عام ١٨٧٩م"(٢).

والجدير بالذكر هنا اسم رائد الرواية الأردية في شبه القارة الهندية وهو السيد نذير أحمد ويقول

(١) الدكتور طه وادي، الصراع بين المذهبية الفكرية والفن في الرواية التاريخية، مجلة الفيصل، العدد:٢٢٩، ص:٢٧

(٢) أنور سديد، التاريخ المختصر للغة الأردية، (باللغة الأوردية: *اردو ادب کی مختصر تاریخ*) مطبعة عزيز لاهور، بدون الطبع، ١٩٩٨م، ص: ٢٩٨

الدكتور وقار عظيم:

"إن نذير أحمد وسرشار وشرر هم سلفنا في فن الرواية وتاريخها، هؤلاء الثلاث ابتكروا طريقاً جديداً في عالَم الرواية بفضل حسهم الفطن ووعيهم الحاذق، وأشعلوا في هذا المجال الشموع التي أنارت دروب كل من يسير عليها" (١).

عرض وتحليل للروايات العربية:

فتح الأندلس – لجرجي زيدان:

يتحدث الروائي أولًا عن الأندلس والقوط وطليطلة، ثم يذكر فلورندا وهي خطيبة الفونس بن غيطشة الذي كان أبوه ملكاً على القوط، وكان الفونس ولي عهد للملك من بعده، ولكن رودرك اختلس المُلْكَ بعد وفاة غيطشة، أما فلورندا فقد بعثها أبوها إلى بلاط الملِك رودرك في طليطلة على عادة النبلاء وحكام الولاة، فاستمال قلب رودرك إلى الفتاة فلورندا، وما استطاع رودرك التحاشي من الوقوع في انتهاك شرفها وكرامتها فقام بمحاولات عديدة لأن تضطر فلورندا إلى ترك خطيبها الفونس ولكنه فشل في جميع محاولاته، استمد الفونس من عمه أوباس لإنقاذ فلورندا من مخالب رودرك والقضاء على بغيته الخبيثة، فاز أوباس في ذلك فأخذ فلورندا معه وتركها عند خالته في الدير.

أما الفونس فعزم الملك على إبعاده عن طليطلة، وبعث إليه الرسالة مختومة بأمره أن يتوجه إلى مدينة استجة، وفي أثناء تلك الرحلة يقابل الفونس في أحد الاجتماعات تاجراً يُدْعَى سليمان اليهودي، وكان سليمان يروي لهؤلاء اليهود أخبار غضب يوليان من رودرك وإرادة ثأره منه من أجل اغتصاب ابنته، وذكر لهم أن يوليان اشتعل نارا منذ تلك اللحظة، وأصبح مع المسلمين في حربهم ضد هذا العدو الجائر والطاغي، وأخذ يحرضهم على الإغارة على إسبانيا، حينما وصل خبر الانتهاك والاغتصاب إلى الفونس فاشتد غضبه على رودرك ونوى أن ينتقم منه سوء الانتقام وسوء العذاب.

اتجه طارق بن زياد مع جيشه البحري بمعونة يوليان وأنصاره إلى إسبانيا، فرُحِّبَ ترحيباً حاراً واستُقْبِلَ استقبالًا ساراً من أهل البلاد لاطلاعهم على مزايا المسلمين وعدلهم وإنصافهم واحترامهم للعهود والوثائق، ثم التقى جيش رودرك وطارق في وادي ليته، وأثناء المعركة استسلم الفونس رسالة من فلورندا تدعوه إلى مناصرة والدها، وتحثه على قتال رودرك، أثرت تلك الرسالة في نفس الفونس فانضم مباشرة إلى صفوف المسلمين، وانتهت الرواية بفتح طارق بن زياد وزواج الفونس من فلورندا.

وضع جرجي زيدان عنوانا للرواية: "فتح الأندلس" مما يوحي بالوقائع والأحداث التي لها علاقة

---

(١) وقار عظيم، من القصة إلى الخيال، (باللغة الأوردية: ***داستان سے افسانے تک***)، أوردو مركز، لاهور، ط ثانية، ١٩١٦م، ص: ٧٧

وصلة بالأندلس وتاريخها، ولا يظهر طارق بن زياد في مبدأ الرواية بل إنه يأتي بعد مائتي صفحة منها تقريبا.

لم يذكر جرجي زيدان الأحداث التي تتعلق بالفتح الإسلامي، أو تتحدث عن حياة طارق بن زياد، بل تدور روايته من أولها حتى مائتي صفحة حول أحداث الحب والود والعشق بين فلورندا وألفونس، مثل:

"إني أسير هواك، وإني حي، برضاك ميّت بجفاك"(١).

يؤكد جرجي زيدان أنه حقق زمان الأحداث ومواعيدها ومكانها معتمدا على المصادر الموثقة ولكن دعواه قد يداخله شك، لأنه يقول في قصة غرامية لفلورندا مثلا أن رودرك فشل في الظفر بفلورندا بطلة الرواية، وما استطاع أن يضر شرفها وعفتها وكرامتها، بينما المصادر التاريخية فإنها تتحدث عن اغتصاب لذريق لفلورندا:

"وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط لعهده بالأندلس فعلةً فعلها زعموا كان بابنته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقتهم، فغضب لذلك، وأجاز إلى لذريق، وأخذ ابنته منه، ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلّهم على عورة فيهم أمكنت طارقاً فيها الفرصة فانتهزها لوقته، وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير"(٢).

فأنا كباحثة لم أتبين السبب الملائم لهذا التعارض التاريخي في القصة، ومع ذلك كان من الحريّ أن يذكر المؤلف اعتداء لذريق على فلورندا، ولتكون أكثر ملاءمة وارتباطاً بالموضوع والواقع، وليتمع القارئ من القراءة فيها، لم يقم جرجى زيدان باستثارة أحاسيس الشفقة والعطف وإيجاب السخط على الجاني، فالرواية وإن كانت من أروع النماذج ولكنها لا تخلو من التحفظ.

وأخيرا فإن رواية جرجى زيدان كثيرة الصفحات مهما تحمل رموزاً تاريخية في عنوانه "فتح الأندلس" ولكنها لا تتكلم عن طارق بن زياد ومعظم الرواية تشمل علي الخيال الغرامي وصنعته، وبالرغم من هذه الملاحظات تجاه تلك الرواية فإنها لا تنال من قيمة هذا العمل، فالرواية تفي بما قصده المؤلف من سرد الأحداث التاريخية -لحد ما – أخذاً من المصادر والمراجع مع ترويح القارئ مانحاً إياه الإمتاع والمؤانسة، وبذلك فتح المؤلف صفحةً جديدةً حيث سار على دربه كثير من الكتّاب الذين جاؤوا بعده.

(١) جرجى زيدان، رواية فتح الأندلس، دار الطباعة بيروت- لبنان، ١٩٦٦م، ص:١٩

(٢) التلمساني، شيخ أحمد بن محمد المقري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ١٩٩٥، ٢٢٢/١

طارق بن زياد – لمعروف الأرناؤوط:

كتب معروف الأرناؤوط روايته التاريخية الاجتماعية الثانية بعنوان: طارق بن زياد، وقسَّمَ أحداث الرواية إلى نوعين: النوع الأول ما تدور فيه الأحداث حول شخصية عقبة بن نافع وقدوم الساحرة (دامية) البربرية لزيارته، وهي ابنة أمير قبائل جرجورة البربرية، وكانت دامية تجيد السحر، جاءت دامية ذات يوم إلى عقبة بن نافع مستغيثة به أن ينقذ قومَها البربرَ من حُكْمِ كسيلا[١] وسلطته، وكان والد دامية قد أنبأها قبل وفاته أن في الأندلس حصناً "فيه تابوتٌ مليءٌ باللآلئ والجواهر" وفي داخل التابوت جلود أو رقوق مصبوغة صُنِعَتْ فيها صورُ فرسان، وقد جاء في أحد الرقوق أنه متى فُتِحَ هذا التابوتُ دَخَلَ القومُ – الذين صورهم فيه – الأَنْدَلُسَ فذهب ملك من فيها إلى أيديهم، بينما والد دامية كان يخاف العرب في زوال ملكه وعرشه، إلا وقد صادفه موته على يد كسيلا، استمع عقبة إلى قصة دامية فوعدها بالقضاء على كسيلا قاتل أبيها. وظلت قصة التابوت تؤرق عقبة وتحثه على ركوب البحر وبلوغ ذلك الحصن في سبتة فندب عشرة من رجاله بينهم طارق بن زياد[٢]، وطريف[٣]، ومغيث الرومي[٤] ليجتازوا المضيق إلى جبل طارق.

قرر عقبة أن يرمي بالسفن والزوارق الى البحر لفتح الأندلس فتوجه إلى معسكره في القيروان وأخذ معه كسيلا مقيّدا ومكبلا إلا أن عقبة رغب في الاستفادة من خبرة كسيلا فلاطفه في الطريق وطلب منه أن يرافقه في فتح الأندلس، اغتنم كسيلا فرصة ذهبية لنقض العهد ثالثاً وطريقاً أنسب للهروب من

---

(١) فهو كسيلا الأوربي البربري البرنسي، أكبر رؤساء البربر وزعيم بربر كان كسيلا متوسط الطول كثيف اللحية، محبا للغدر والخيانة، وصل زهير بن قيس والجيش الإسلامي باب القيروان سنة ٦٩هـ ثم التقى الطرفان، واقتتلوا قتالا شديدا، وهزم كسيلا وحلفاؤه وقتلوا قتلا ذريعا. راجع: موقف كسيلا من الفتح الإسلامي للمغرب، لمحمد بن ناصر أحمد الملحم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص: ١٢

(٢) طارق بن زياد الليثي بالولاء، فاتح الأندلس، أصله من البربر، أسلم على يد موسى بن نصير فكان من أشد رجاله ولما تم لموسى فتح طنجة، ولى عليها طارقا. راجع: الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط خامسة عشر، ٢٠٠٢م، ٢١٧/٣

(٣) هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري، الاسم طبق الكنية. بعث موسى رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة في أرب أربعمائة رجل معهم مائة فرس سارهم في أربعة مراكب، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم جزيرة طريف لنزوله بها. راجع: نفخ الطيب من غصن الاندلس الرطيب، ٢٤٥/١

(٤) مغيث الرومي، قال المقري: ليس برومي على الحقيقة، وتصحيح نسبه أنه مغيث بن حارث ابن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، سبي من الروم بالمشرق وهو صغير، فأدبه عبد الملك بن المروان مع ولده الوليد. ونشأ مغيث بدمشق فأصبح بالعربية وقال الشعر وتدرب على ركوب الخيل وخوض المعارك. راجع: الأعلام. ٢٧٦/٧

ظلمات السجن والذل، عهد كسيلا إلى عقبة أن يساعده في فتح الأندلس بعد أن يحشد قواته، غدر به كسيلا ونقض عهده وأخلف وعده لأن عقبة حينما سمح له أن يجمع قوته فذهب كسيلا إلى الجبال واعتصم بها متخفياً.

كانت المعركة شديدة بين عقبة وكسيلا، مات عقبة بن نافع في هذه المعركة بعيدا عن وطنه دمشق وبذلك ينتهي شطر من الرواية بموت بطل القسم الأول؛ الأمير عقبة بن نافع ختاما مأساويا.

وفي القسم الثاني من الرواية انتقل الكاتب إلى بلاد الأندلس الراقية وبدأ الرواية بذكر قصر (فال كلارا) المشرف على طليطلة حيث تعيش فلورندا ابنة يوليان مع عمها أسقف أشبيلية.

ثم ذكر الروائي علاقة الحب والود والتقدير بين فلورندا ومغيث الرومي، فقد أعجبت الفتاة الناضرة بثقافة مغيث لأنه كان ذا ثقافات متنوعة وكان يحسن اليونانية والعربية، ذات يوم كان مغيث الرومي في القصر فوجد الرسالة التي كتبت فيها عن الذهاب إلى أفريقيا وكان هذا تمهيداً للفتح، ثم ذكر مغيث عن رحيله أمام فلورندا فأصبحت حزينة ويائسة، فقال لها مغيث إنني سأعود إليك مع الربيع، وسنعيش معاً في قصر بلنسية[(١)].

قسم الروائي معروف الأرناؤوط الرواية "طارق بن زياد" إلى قسمين: تناول في القسم الأول الفتوحات التي حققها المسلمون في إفريقيا، وجعل بطل تلك الفتوحات عقبة بن نافع، ولم يذكر شخصية طارق بن زياد دون إشارات، ويحتوي هذا القسم على ١٣٢ صفحة، ثمّ تحدث عن فتح الأندلس بالذات في القسم الثاني وجعل بطل ذاك الفتح مغيث الرومي، وجاءت أربعة فصول في هذا القسم، ومجموعة صفحاته ٩١ صفحة، ومن الغريب في هذه الرواية أن المؤلف سماها باسم طارق بن زياد دون أن يذكر هذا البطلَ الإسلاميَّ في القسمين منها، فمضمون الرواية لم يتوافق مع عنوانها، فلو وضع معروف الأرناؤوط عنوان الرواية: "عقبة بن نافع" أو "الساحرة الدامية" لكان أنسب وأجدر.

رواية "طارق بن زياد" من أقصر روايات معروف الأرناؤوط طولاً، فالقسم الأول منها يشمل قضايا تاريخية بينما الفن الروائي فإنه ركز عليه في القسم الثاني.

ثمة من النقاد الذين عابوا على روايات معروف الأرناؤوط قائلين: إنه وإن كان يقدر على حبك الوقائع وسبك الأحداث عبر السرد الفني ولكنه يتكلف عند ربط التاريخ بالبنية الروائية، فكأنه يبدو عاجزا عن الإتيان بمثل هذا الربط، فالقارئ لا يستطيع أن يتمتع بمجرد قراءة فاحصة في الرواية لاعتمادها على المصادر التاريخية نحو تاريخ ابن خلدون و نفح الطيب والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، مثل قصة التابوت،

(١) مدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة، وهي بريّة بحرية ذات أشجار وأنهار. وتعرف بمدينة التراب. راجع: معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر بيروت، بدون الطبع، ١٩٩٣م، ٤٩٠/١

وقد وردت هذه القصة في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وتناول الروائي معروف الأرناؤوط هذه القصة في روايته نقلا عن نفح الطيب، إلا أن الفرق بين المقري صاحب نفح الطيب والروائي هو أن المؤرخ قد ذكر في كتابه أن رودريك لما تولى أمر الأندلس، فتح التابوت وعرف بما فيه، أما الرواية فإن القصة تعود فيها إلى عقبة بن نافع الذي أراد الذهاب إلى الحصن بعد أن حثه كلام دامية على ركوب البحر، والبلوغ إلى الحصن في سبتة، رافقه عشرة رجال، وكان من بينهم طارق بن زياد وطريف ومغيث الرومي.

وفيما أرى أن الحقيقة تلتبس على القارئ بسبب هذا الأسلوب المداخل، فالقارئ يُشكل عليه ترتيب الأحداث ولاسيما الأحداث الرئيسة منها، ويشتبه عليه التوفيق بينها بل إنه بدأ يشك في أصلها وتقفز إلى ذهنه عدة أسئلة؛ متى حدثت هذه الحادثة؟ هل كانت تلك الحادثة في عصر عقبة بن نافع أو في عصر طارق بن زياد؟ ومن كان البطل الحقيقي للقصة؟ وهذا الذي حدث معي، لأنني لا أزال في شك تجاه أدوار الشخصيات الواردة في تلك الرواية، ولا أدري بالضبط متى حدثت هذه القصة ومع من حدث الأمر!

فلابد للروائي أن يراعي الأحداث الرئيسة بالذات ولا يخلط بينها وبين صنعة الخيال والإبداع، لأن الرواية تصير بذلك متنافرةً وغير مترابطةٍ، انتقل الكاتب في القسم الثاني إلى بلاد الأندلس، وتركت حياة عقبة بن نافع حزنا وكآبة لمن بعده، ثم انصرف الروائي من ذكريات تلك المدن الأندلسية الملآنة خيرا ورخاء وسعة إلى قصر "فال كلارا" في طليطلة، حيث عاشت فلورندا ابنة يوليان مع عمها أسقف، وكان في القصر خادم، اسمه مغيث الرومي، ثم نشأت علاقة الحب والوداد بين الأميرة فلورندا وخادمها مغيث الرومي، بينما العودة إلى تاريخ مغيث الرومي وترجمته في المصادر التي تناولتها تكشف الأستار عن شخصيته البارزة، وتجعل له مكانة مرموقة، وفي رأيي: إن الفن قد يداخل التاريخ، ولا بأس بذلك لأن القارئ العادي أو المتلقي الخارق لا يستشعر تلك المتعة واللذة دون تلك المداخلات الرومانسية بين الوقائع، إنها هي التي تبثّ روح الحيوية في الأحداث وتجعل سردها سردا جذابا، ولكن ما يخصني ههنا هو أن تلك الرومانسية والحب والغرام وإن كان لها مساس عميق وأثر دقيق ولكنها لا تلائم الشخصياتِ الإسلاميةَ.

ومن ميزات روايات معروف الأرناؤوط أن كثيرا من أبطال رواياته كانوا يتامى أو الذين ربتهم أمهاتهم لئلا يستبعدهم أحد، وينبغي للقارئ أن يقف ههنا هنيئة متأملا في حياة الكاتب، لأنه كان يتيما، فرُبِّيَ يتيما، فرَهُفَ ذوقه ورقَّ ولطُفَ، ولعل القارئ يدرك ذلك برهافة حسه وشعوره، ثم تعود الرقة واللطافة والإحساس الدقيق إلى كتابته.

عرض وتحليل للروايات الأردية:

فتح الأندلس – لعبد الحليم شرر:

تبدأ الرواية بحادث لقاء عيسى بن مزاحم[١] مع القائد العسكري الإسلامي والإفريقي موسى بن نصير[٢] للتباحث حول الإغارة المشتركة على سبتة.

وسبتة كان مدينة قديمة عند الساحل وحاكمها يوليان الذي كان معروفاً بشجاعته وموسى بن نصير اعتمد على طنجة[٣] بعد فتح شمال إفريقيا وأغار على حكومة يوليان مرتين لكنه فشل فيهما، ذات يوم بلغ الضابط المسيحي إلى سبتة ليخبر يوليان عن إرسال خليفة المسلمين تعزيزات عسكرية جديدة من الشام للهجوم على سبتة وقائد هذه القوات عيسى بن مزاحم، فأرسل يوليان ابنته فلورندا إلى قصر طليطلة لأنه سمع أن عيسى بن مزاحم أراد الهجوم عليه بسبب ابنته لأن شهرة جمالها فاقت العالَم كله، اعتذرت فلورندا عن مغادرة الوطن بسبب سوء نية رودرك ولكن يوليان وعدها بأن رودرك لن يتجاسر ويجرؤ على أن ينظر إليها نظرة سوء فضلا عن أن يمسها لكونها حفيدة الملك إسبانيا السابق رضيت فلورندا للذهاب إلى طليطلة واصطحبتها ابنة خالها مريم أيضاً، وبعد أيام قليلة جاء الجيش الإسلامي فحاصر سبتة من ثلاث جهات برية انهزَمَ يوليان في هذه المعركة، وعندما وصلت فلورندا إلى طليطلة استقبلها رودرك وحاول التقرب إليها رويدا رويدا كانت مريم ابنة خالها معها إلا أنها قد هربت خوفا وفزعا من رودرك ورجاله، أما فلورندا فقد وقعت أسيرةً في أيدي هؤلاء الأُسْد عند بوابة المدينة ولم تتمكن من إنقاذ نفسها من أظافرهم، ارتضت فلورندا حينئذ ببقائها مع رودرك وساومته على ذلك، فأرسل رودرك خادمها إلى والدها بخبر المصير.

ولما وصل خادم فلورندا إلى جبل طارق تمت محاصرة سبتة من أربع جهات قرأ يوليان تلك الرسالة فأصبح حزينا وأرسل من فوره رسالة إلى موسى بن نصير للصلح والهجوم المشترك على إسبانيا

---

(١) عيسى بن مزاحم، المصادر العربية الإسلامية تجمع كلها على أن العرب حسنوا معاملة إيفا وسيزبوت ابني وتيزا وعمها أوباس، وتوفي إيفا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن ابنة تدعى ساره وولدين صغيرين، فاغتصب ميراثها فسافرت مع أخويها إلى دمشق، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبدا لملك، فأنصفها وقضى بها برد ميراث أبيها، وتزوجت سارة في دمشق من سيد عربي عيسى بن مزاحم. راجع: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٦١/١

(٢) هو موسى بن نصير اللخمي، أو البكري، العربي بالولاء، المولد زمن عمر بن الخطاب سنة ١٩هـ، والمتوفى سنة ٩٧هـ، وقيل٩٩هـ، فاتح بلاد الأندلس. راجع: موسى بن نصير الفاتح، الذي لم تهزم له راية. يحي شامي دار الفكر العربي بيروت لبنان، ط الأولى ٢٠٠٥، ص: ٩

(٣) مدينة في الإقليم الرابع بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر، قال ابن حوقل: طنجة مدينة أزلية آثارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر. راجع: معجم البلدان، ٤٣/٤

فكتب موسى رسالة إلى أمير المؤمنين وليد بن عبد الملك إلى دمشق لأخذ موافقته للهجوم على إسبانيا.

وعيسى بن مزاحم قد سمع من قبل عن جمال فلورندا كان مولعاً لرؤيتها وعندما رأى في القصر بنتاً جميلة ظن أنها فلورندا فبدأ الحب بينهما حتى تقوَّت علاقة الحب والود ولكن من سوء حظ حينما وصلت فلورندا إلى القصر ساعتئذ عرف عيسى بن مزاحم أنه يعشق فتاة اسمها مريم هي ابنة خال فلورندا وليست فلورندا ذاتها، ففي نفس اليوم وصل خطاب الخليفة الذي كان يشتمل على فحوى موافقته على إرسال بعض السفن مع قوات إلى ساحل إسبانيا، وفي مساء اليوم نفسه التقى يوليان بموسى بن نصير وأعلمه بحب عيسى بن مزاحم لفلورندا فنصحه بأن يتزوج ابنتها بدلا من مريم، ولكن موسى بن نصير أجّل أخذ القرار النهائي حيال الموضوع لوقت آخر، ثم جاء طارق بن زياد على ساحل إسبانيا وأحرق السفن كلها وأمّا مريم فهربت من بيتها ولقيت بعيسى بن مزاحم في المعسكر وأخبرته عن إصرار يوليان على زواجه من فلورندا لتعرضها إلى الاغتصاب من قِبَلِ رودرك فرفض عيسى الزواج بها واتجه إلى جيش طارق بن زياد، وكانت قوات رودرك وطارق مقيمة على ساحل النهر في المنطقة التي كانت قريبة من جبل طارق، وفى المنام بشَّر رسولُ الله ﷺ طارقاً بالانتصار وكان الجيش المسيحي في جانب آخر من النهر نزل عيسى وطارق بقواته واحتدمت المعركة واختلط الحابل بالنابل وكان عدد قوات رودرك مئة ألف ومع ذلك هزموا هزيمة نكراء.

ثم جاء الملك بيدرو والد مريم فعرض عيسى عليه رغبته في الزواج مع مريم وفي النهاية تمت الأمور كلها، وخلال هذه الحوادث مات الخليفة وليد بن عبد الملك وجاء مكانه سلمان بن عبد الملك(١)، وأمر موسى بن نصير وطارق بن زياد بالعودة من إسبانيا، وذهب عيسى ومريم إلى دمشق وذكر أحوال الحرب أمام الخليفة، وفي النهاية أسلمت مريم أيضاً في مكة المكرمة وسافرت إلى طليطلة وهناك سألت مريم أباها عن سلوقس فأخبرها بيدرو أن سلوقس كان أكبر إخوته وولي عهد ملك غيطشة أخبرته مريم بأن عيسى هو ابن أخيه ثم سافر عيسى ومريم إلى قرطبة.

ذكر الروائي عبد الحليم شرر في الباب الأول أن موسى بن نصير قد أغار مرتين على سبتة، وفي ذاك الوقت كان يوليان حاكم سبتة، ولكن موسى بن نصير لم ينتصر في تلك الإغارة، ثم أغار عيسى بن مزاحم على سبتة مؤخراً فأبلى بلاء حسنا، وذلك ليس من أجل خدمة الإسلام ونشره بل من أجل ابنة يوليان فلورندا، لأنه تأثر بحسنها وجمالها.

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان، (٥٤ـ٩٩هـ) أبو أيوب، الخليفة الأموي. ولد في دمشق، وولى الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ، وكان عاقلا فصيحا طموحا إلى الفتح، جهز جيشا كبيرا وسيره في السفن بقيادة أخيه، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياما. راجع: الأعلام، ١٣٠/٣

ثم ذكر الكاتب السببَ الثاني لدخول المسلمين في الأندلس وهو قصة فلورندا بنت يوليان حاكم سبتة التي أرسلها أبوها إلى قصر لذريق لتأنس الحياةَ الملكيَّةَ، ولكن الملك القوطي اغتصب شرفها فنال منها حاجته بالرغم منها مع استخدام العُنْفِ، صمم يوليان على الانتقام من الملك القوطي واتصل بطارق بن زياد واستمده على الملك، فأغراه على فتح الأندلس الكريمة، ولكن التاريخ يذكر أن عوامل الفتح الداخلية والخارجية كانت أوسع من أن تحصر في شرف فتاة.

ثم ذكر الكاتب أن طارق بن زياد قد زار رسولَ الله ﷺ في منامه، فبشَّره بالنصر... وافق كلام الروائي ههنا بما ورد في التاريخ: "وذكر ابن القوطية أنّ طارقا لما ركب البحر غلبته عينه فرأى النبي ﷺ وحوله أصحابه وقد تقلّدوا السيوف وتنكبوا المشي فدخلوا قدامه، وقال له النبي ﷺ تقدم يا طارق لشأنك، فانتبه مستبشرا وبشر أصحابه ولم يشك في الظفر، قال: فشن الغارة وافتتح سائر المدائن وولى سنة واحدة، ثم دخل مولاه موسى، فأتم ما بقي من الفتح في سنة ثلاث وتسعين"(١).

وفى نهاية الرواية ذكر المؤلف نبأ وفاة الخليفة وليد بن عبد الملك أثناء الحملة العسكرية على الأندلس، ثم استولى على الحكم سليمان بن عبد الملك، فاستحضر جميع الأمراء والرؤساء مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد من إسبانيا، وقتيبة بن مسلم من كاشغر، ومحمد بن القاسم من الهند، ولكن جاء في كتب التاريخ أن موسى بن نصير قد عاد إلى دمشق في حياة الخليفة وليد بن عبد الملك: "وقد اختلفت الرواية العربية في مصير موسى بن نصير، واختلف الرواة في أمر لقائه بالخليفة، فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك وقدم إليه الأخماس والغنائم، فأكرمه وأحسن إجازته، ثم توفي الوليد بن عبد الملك بعد ذلك بقليل مستخلفا أخاه سليمان على كرسي الخلافة، فغضب سليمان على موسى"(٢).

ومن المواضع أكثر ضعفاً في الرواية من الناحية التاريخية هو عرض شخصية عيسى بن مزاحم كبطل الرواية، وتبيان العلاقة الودية بينه وبين مريم ثم عقد قرانهما بعد فتح الأندلس... فالرواية وإن اشتملت على الأحداث التاريخية ولكن الكاتب قد تصرف كثيرا في الظروف الزمانية والمكانية، وخاصة فيما يتعلق بعيسى ومريم.

في سجن دمشق –لعنايت الله التمش:

كانت قاعة بيت الله الحرام وفناؤه مليئا بالملبين من المواطنين والوافدين؛ لبيك اللهم لبيك لا شريك لك...كان ثمة أناس جالسون على الأرض جاؤوا متسوّلين إلى مكة في أيام الحج، جاء إليهم شيخ

---

(١) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية القاهرة مصر، ٣٩٣/٦

(٢) عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الاموية والدولة العامرية، مكتبة الخانجي بالقاهرة مصر، ط رابعة ١٩٦٩م، ص: ٥٧

كبير مقيداً بأغلال وجلس معهم إنه كان في ثمانين من عمره، وعندما سأل الحجاج ذلك الطاعنَ في السن سبب تقيّده فأجابه بعد صمت طويل: ذنبي فقط أن وليد بن عبد الملك مات وتولى مكانه أخوه سليمان بن عبد الملك.

كان موسى بن نصير يذكر ذكريات أيام الخلافة جالسا على الأرض ولم يكن عمر الخلافة إلا ثلاث أو أربع سنوات...تبدأ القصة بقدوم يوليان إلى طارق بن زياد وعَرْضِه عليه مساعَدَتَه في الإنقاذ والتخلص من "لذريق" حاكم الأندلس، رَحَّبَ طارق بن زياد بهذا الطلب لكونه فرصة مواتية لمواصلة الفتح والجهاد أثناء الحديث سأل طارق بن زياد سبب هذا الانتقام، أجابه يوليان: إنه من أجل ابنتين له؛ فلورندا وميري، فأرسل يوليان ابنته فلورندا إلى قصر "لذريق" لتعلم آداب الأمراء والسادة طريقة معاشهم آناء الليل وأطراف النهار جريا على نحو سادة عصره، وكانت فلورندا بارعةَ الجمال فلم يقع بصر "لذريق" عليها إلا وقد هجم هجوما شنيعا على عفافتها، ولكن فلورندا كانت تحب هنري أحد رجال قصر أبيه.

لما سمع طارق بن زياد هذه الأحوال فكَتَبَ رسالةً إلى موسى بن نصير مستأذنا إياه في فتح الأندلس، فقال له موسى أن ينتظر حتى يأتيهم الإذن من خليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك، حينما عرف الخليفة عن تلك الأوضاع السيئة في الأندلس أذن لهم بذلك، فقام طارق بن زياد بالاستعداد لفتح بلاد الأندلس بقيادة سبعة آلاف جندي معظمهم كانوا بربرا، وعبر مضيق البحر المتوسط فلاقاهم الكونت يوليان بأسطوله، وأقام طارق بن زياد هناك عدة أيام، وعند ما وصل جيش لذريق احتدمت المعركة بين الفريقين في رمضان عام ٩٢هـ بالقرب من شذونة، وظلّت تلك المعركة مستمرة طوال ثمانية أيام وانتهت المعركة بانتصار المسلمين فيها والهزيمة النكراء للعدو وغرق لذريق في الماء.

بعد هذا النصر العظيم تعقّب طارق بن زياد الجيش المنهزم وفتح البلاد الكبيرة مثل قرطبة وغرناطة ومالقة ثم أرسل الخطاب إلى موسى بن نصير، فلما قرأ موسى بن نصير ذاك الخطاب سار بنفسه إلى الأندلس مع الجيش والتقى بطارق بن زياد في طليطلة، ومن سوء حظ طارق بن زياد أنه قد أصيب بحقد موسى بن نصير بسبب مقدامه وشجاعته وجرأته ونفوذه وأهانه موسى بن نصير.

بعد مدة قليلة رجع القائدان ثانية إلى ميدان القتال والجهاد ففتحا من المدن، وقد وصل إليهما الخطاب من الخليفة الوليد بن عبد الملك حيث أمرهما فيه الوقوف عن التقدم والعودة إلى دمشق، غادر هذان القائدان الأندلس وواصلا السير إلى دمشق، ولما وصلا طبريا في فلسطين طلب منهما سليمان بن عبد الملك ألا يزورا الخليفة الوليد بن عبد الملك بسبب فراشه وطلب منهما أن ينتظرا حتى احتضاره ولكنهما تابعا السير ودخلا مع الغنائم في دمشق، ولعل ذلك أغضب سليمان على موسى بن نصير وطارق بن زياد لأنه كان يريد المال والغنائم لنفسه وعندما تولى سليمان الخلافة عزل موسى وأولاده وقتل ابنه عبد العزيز الذي تولى حكم الأندلس بعد مغادرة أبيه، إنه كان صاحب صوم وقيام، أما طارق بن

زياد فلم ينل حقا ذا شأن بل إنه عاش فقيراً ومات فقيراً فكتب اسمه بحروف ذهبية على صفحات التاريخ.

استمد الكاتب أحداث روايته من فترة تاريخ الأندلس نحو وقائع الكفاح الإسلامي ضد المسيحيين واليهوديين، ووضع المؤلف اسم الرواية: "في سجن دمشق" بدلا من "فتح الأندلس" كما فعل بعض الآخرين للإشارة إلى الشخصيات التي سجنت لفترة في سجن دمشق، مثل الفاتح الإسلامي محمد بن القاسم الثقفي، والقائد الإسلامي قتيبة بن مسلم، والقائد الفذ موسى بن نصير... إنهم لم يرتبكوا بجريمة سوى قيادة المعارك الكبرى التي خاضوها فافتتحوا تلك البلاد وحرروها، واكتسبوا بذلك حب الشعب، ولعل ذاك الحب جعل الخليفة سليمان بن عبد الملك حاقدا عليهم، ثم لم يستطع الخليفة أن يغلب على ضغينته فقام بقتلهم.

تبدأ الرواية بإهانة سليمان بن عبد الملك واستخفافه بموسى بن نصير، حيث فُرِضَ على القائد العظيم من الخليفة أن يدفع غرامة مالية تأديباً أو تعويضاً، فاضطره وألجأه إلى التسول في موسم الحج، حينما جاء حجاج بيت الله الحرام وجدوه طالب عطية وإحسان فاستغربوا ذلك ثم سألوه عن السبب؟ أجابهم موسى بن نصير: قد مات الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتولى العرشَ أخوه سليمان بن عبد الملك... فكأنه أشار إلى ما كان الخليفة سليمان يُكِنُّ له ضغينة وحقدا... والواقع حينما بحثت عن هذه الحادثة فلم أجدها في كتب التاريخ، قال ابن خلكان:

> "ولما وصل موسى إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده سليمان أخوة، وحج في سنة سبع وتسعين للهجرة–وقيل سنة تسع وتسعين، حج موسى بن نصير ومات في الطريق بوادي القرى، وقيل بمر الظهران، على اختلاف فيه، وكانت ولادته في خلافة عمر بن خطاب"[١].

تصرف الكاتب تصرفا شديدا في الوقائع التي تتعلق بهذه الأدوار، ولعله يشير إلى قلة اطلاع الروائي على تلك الأحداث التاريخية، ولاسيما انعدام الترابط والتلاصق بين التاريخ والرواية... ثم ذكر الروائي أن موسى بن نصير قد أخبر الناس الذين قدموا من أرجاء البلاد للحج أنه قد أُلْقِيَ في المعتقل نفسه الذي سجن فيه محمد بن القاسم، وقتيبة بن مسلم.

ومن سلبيات الرواية أن الروائي أطنب في الحديث عن سرد الأحداث والوقائع ولاسيما الأخبار الجانبية، والأماكن والأشخاص، ومن ثم جاء الاستطراد في الرواية فجعلها طويلة.

بعد قصة الفتح ذكر الروائي أن موسى بن نصير حَسَدَ طارقَ بن زياد من أجل الفتوحات... ثم

(١) ابن خلكان، محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة أمير قم إيران، ط:١٣٦٤م، ٣٢٩/٥

ذكر المؤرخون بواعث عديدة وأسباب كثيرة أدت إلى إيقاف موسى بن نصير تقدُّمَ طارق بن زياد وحملته على إصدار قرار حاسم تجاه وقوفه من الفور، ثم ذكر الروائي تفاصيل الخلاف بين ذينك القائدين العظيمين، حتى ذكر قصة أخرى تكشف سوء العلاقة بينهما، سافر موسى إلى دمشق وكان في رفقته طارق بن زياد ومغيث الرومي وغنائم كثيرة للخليفة، ثمة كانت مائدة ذهبية أراد طارق بن زياد إهداءها للخليفة ولكن موسى بن نصير أخذها منه كرها ليهديها بنفسه إلى الخليفة، جاءت هذه القصة في التاريخ:

"وكانت توضع على مذبح كنسية طليطلة، فأصابها المسلمون هنالك، وطار النبأ الفخم عنها، وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذي فعله من غيرته على ما تهيّأ له ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه، فاستظهر بانتزاع رجل من أرجل هذه المائدة خبّأه عنده"[١].

وذكر في نهاية الرواية أن عبد العزيز بن موسى بن نصير قد قُتِلَ فجاء برأسه سليمانُ بن عبد الملك ليريه أباه في السجن، عندما رأى موسى بن نصير رأس ولده العزيز فلم يصبر ومات.

هذه لمحات موجزة من الرواية ذكرتها ههنا مقارنة بينها وبين ما ورد في المصادر التاريخية، ووجدت أن معظم تلك القصص التي وردت في الرواية تتوافق مع القصص التي وردت في تلك المصادر، ولاسيما الأمور الرئيسة تتوافق لغاية ما بالنسبة للجزئيات فإنها تتوافق لحد ما، لم يبتكر الكاتب شخصيات الرواية بل إنها مستعارة من التاريخ، وفي الأخير قبل الختام عبر الكاتب حالة الهند في ضوء تاريخ الأندلس.

أوجه التشابه والتباين بين الروايات العربية والأردية:

الموضوع:

تعرضت الرواية "فتح الأندلس" لجرجى زيدان للأحداث الكبرى والصغرى، الخيالية والحقيقية، واتخذت مادَّتَه من فترة محددة من تاريخ الأندلس وهي فترة فتح "الأندلس" على يد أحد قواد الجيش الإسلامي طارق بن زياد.

أما الرواية "طارق بن زياد" لمعروف الأرناؤوط فإنها تدور حول عقبة بن نافع، قسَّمَ الكاتبُ روايته إلى قسمين؛ يدور القسم الأول حول عقبة بن نافع، والقسم الثاني حول مغيث الرومي.

أما الرواية "فتح الأندلس" لعبد الحليم شرر فإنها تدور حول البطل عيسى بن مزاحم، فلم يركز الروائي في الرواية على شخصية طارق بن زياد إلا في بضعة مواضع.

هؤلاء الروائيون اتفقوا في عرض الموضوعات، ولاسيما في صلب الموضوع وهو فتح الأندلس وما يدور حوله حتى توافقت عناوين رواياتهم بعضها مع بعض، فحينا وضعوا عنوان الرواية "فتح الأندلس"

(١) نفح الطيب، ٢٦٢/١

وحينا "طارق بن زياد"، ومع ذلك فإنهم لم يتناولوا بالدقة شخصية البطل الإسلامي طارق بن زياد.

هذه الروايات تتشابه فيما بينها، وبخاصة وجد الاستطراد فيها بشكل كبير، والمبالغة في سرد الأخبار ووصف الأماكن والأشخاص والأغراض والمواكب وغيرها حتى ينتهي هذا الطول في نهاية أشواط المطاف إلى ملل القارئ وسأمه.

الشخصيات والأحداث:

تصرف الروائي معروف الأرناؤوط في وضع الشخصيات والمواقف حيث وضع شخصية طارق بن زياد مثلا في موقف شخصية عقبة بن نافع أو العكس، ومثل هذا النوع من التصرف في الأحداث لا يغطّي صدق التاريخ أو مثلا نرى جرجى زيدان أنه ذكر الشخصيات الجانبية أو الأساسية مع الشخصيات المحورية أو العكس... ولعل الروائيين قد فعلوا ذلك لإثارة لهفة القارئ وشوقه في القراءة، وكما تقدّم أن الرواية التاريخية عبارة عن خلط ومزج بين ثنائية التاريخ والأدب أي الخيال والأسلوب، أما الروايات الأردية فنجد فيها أحد الروائيين عنايت الله التمش أنه نسج رواياته في أسلوب أسطوري، أما عبد الحليم شرر إنه جاء أيضا في روايته بشخصيات خيالية مثل شخصية عيسى بن مزاحم في رواية "فتح الأندلس".

الصراع:

حاول الروائيون جميعهم للاستفادة من هذا النوع الفني المجيد، وساروا على هذا النحو، ونجحوا فيه لغاية ما، نحو المعارك الفنية بين طارق بن زياد ولذريق، وبين المسلمين والمسيحيين...

اللغة والحوار في الرواية:

لغة جرجى زيدان سهلة وواضحة لا غموض ولا إبهام فيها، أما لغة معروف الأرناؤوط فإنها مليئة بالتكلف والزخرفة، إنه تصنع بالمحسنات البديعية، أما لغة عبد الحليم شرر فإنها صعبة وثقيلة، أما عنايت الله التمش فلغته رقيقة ورائعة.

أما الحوار فإنه غير دقيق عند جرجى زيدان بل يظهر فيه شيء من خلل أو نقص، والسبب في ذلك أنه سار على مستوى واحد في السرد والحوار، أما معروف الأرناؤوط فعنده استطرادات وتفصيلات تجعل القارئ يملل ويسأم، والحوار في الروايات الأردية في روايات عبد الحليم شرر طويل حتى يظن القارئ أثناء القراءة فيها أنها ملحمة وليست رواية، ومن ثم تولدت في رواياته من التعقيدات التي تثير شيئا من الملل، فأدرك ذاك الضعف عنايت الله التمش فتحاشى الوقوع فيه بإيجاز الحوار في رواياته.

المصادفات في الرواية:

أما المصادفات فإنها من سمات بارزة للرواية التاريخية، فالكتّاب يستعينون في نسج القصة والرواية بالمصادفات الإلهية، ويحاولون إيجاد الربط بين الشخصيات والأحداث من خلال تلك المصادفات هادفين من ذلك توليد التماسك التام، تلك المصادفات التي يحرصون عليها في بناء الرواية أو القصة قد تكون معقولة ومقبولة وقد تكون مرفوضة، كما نرى في الرواية جرجى زيدان فقد وجد كثير من تلك المصادفات في رواياته، إنه يلوي بها أعناق الأحداث ويحاول أن يثبت المستحيل ممكنا، أو الممكن مستحيلا، نحو قصة اغتصاب لذريق ابنة يوليان فلورندا، ثم فرارها منه، ففي قصة فرارها علة لأنها تبدو مستحيلة أو مخالفة للعقل.

وقد وجد مثل هذه المصادفات كثيرا في روايات عبد الحليم شرر، أما المصادفات في روايات معروف الأرناؤوط فإنها مقبولة، أما عناية الله التمش فإنه لم يأت بكثير من تلك المصادفات لعدم اعتماده على الخيال بل إنه حاول ربط خيوط الرواية بالحقائق التاريخية.

سيطرة الخيال في الرواية:

هذه السمة قد أحدثت خللا كبيرا في بناء الرواية الفني، فالروائيون الذين اعتمدوا على كل ما يتلجلج في صدورهم ثم نقلوها إلى وجه القرطاس قد وقعوا في فخ هذا الضعف، وجد هذا النقص بكثير في روايات جرجى زيدان، إنه جعل شخصية فلورندا أكثر قوة ونشاطا من الرجال، حتى أصبحت هذه الفتاة أخيرا في روايته شخصية أسطورية أكثر منه شخصية حقيقية، وكذلك وجد هذا العيب في روايات عبد الحليم شرر حيث جعل في روايته عيسى بن مزاحم شخصية خيالية، بعد معاودة النظر والمراجعة فيه يتبادر إلى الذهن سؤال: هل الكاتب أو الروائي حر في صنعة التصرف في الأحداث التاريخية؟ فأظن إن الروائي يجوز له أن يتصرف في أحداث الرواية إذا لم يخالف التاريخ، وإذا أدى تصرفه في الأحداث إلى المخالفة فلابد أن يتجنبه، ولا يباح له عندئذ أن يتصرف في نسج الرواية على قدر الهوى والخيال، ولعل السبب لهذه المشكلة الذي دفع الكتّاب والروائيين إلى المزج بين الواقع والخيال هو الرؤية المزدوجة حيال الأدب، وهذه الوجهة من النظر غير دقيقة لأن هناك فرقا كبيرا يبن الفن والفكر، وذلك:

"علماً بأن الرؤية النقدية الواعية هي التي تنظر إليهما معا أثناء الحكم على الكاتب؛ فالكاتب الروائي الناجح هو الذي يعرف كيف يحقق التوازن المطلوب بين الفكر والفن، بين متطلبات الحبكة الرؤية وتدفقها، ومنحنيات الموضوع وضروراته"[(١)].

---

(١) خليل، عماد الدين، محاولات جديدة في النقد الإسلامي، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ص:٢٤٨

أهم نتائج التي توصلت إليها

أود هنا أن أذكر أهم نتائج التي توصلت إليها:

- ظهر فن الرواية التاريخية في الأدبين؛ العربي والأردي عن طريق الترجمة للرواية الإنجليزية، وعبد الحليم شرر هو أول من جنى بذور كتابة الرواية التاريخية في الأدب الأردي، وجرجى زيدان هو أول من قام ببناء كتابة الرواية التاريخية في الأدب العربي متأثرا بكتابة الرواية التاريخية الإنجليزية (للسيروالترسكوت)، يتيح التاريخ للروائيين أن يذهبوا حيث يشاؤوا في نسج الواقع الحقيق أو المزيج من الخيال شريطة ألا يجتاحوا دوائر الصدق والحق في نقل تلك الوقائع التاريخية.
- يعتبر عبد الحليم شرر رائد الرواية التاريخية الأردية في شبه القارة الهندية، إنه عبر في رواياته عن الأوضاع العاتية والاضطرابات الداخلية والخارجية والمشاكل البيئية والشعبية وما إلى ذلك من القضايا التي تتعلق بالهند وأهلها، إنه كتب تلك الروايات التاريخية لتذكير ماضيهم وحاول بها إصلاح المجتمع داعيا إياه إلى الجهاد ورفع رأيه الإسلام ونشر دعوته في العالم كله، والقضاء على البلاء وإنقاذ الدولة من الأعداء.
- اهتمت روايات عنايت الله التمش بالواقع التاريخي، وحاولت إقناع القارئ بتوثيق المعلومات، ولذلك يجد القارئ أن معظم الأحداث التي جاءت في روايات هذا الكاتب تتوافق بجملتها مع ما ورد في بطون التاريخ ومصادره، وهذا من شمائل هذا الروائي وخصاله الحميدة.
- حاول جرجى زيدان استعمال لغة تثير لهفة القارئ وترغّبه في القراءة، وتبعد عنه السأم وتنشّطه لغاية ما.
- أدت الظروف السياسية الكاتبَ معروف الأرناؤوط إلى اختيار الرواية كوسيلة للتعبير، إنه يُعَدُّ رائد الرواية التاريخية السورية، إنه استعمل لغةَ حركةٍ وحيويةٍ، عندما يبدأ القارئ إحدى رواياته فتجيش نفسُه إلى إكمالها لسلاسة أسلوبه ورقته وسهولته وانسجامه وعذوبته... ومعظم موضوعات رواياته تتعلق بالفترات السياسية التي تحفل بأحداث الفتن والمؤامرات والدسائس والمغامرات ضد المسلمين.
- مضى الروائيون خُطا جيدة في سبيل بناء منارات الحق عبر إنتاجاتهم الرائعة وإبداعاتهم الحسنة وابتكاراتهم الشائقة ولاسيما الروائيون الملتزمون بالتاريخ الإسلامي، فإنهم بنوا حضارة راقية وعُمْرانا متميّزا للأجيال الصاعدة وأبناء الزمن القادم.

اللهم لك الحمد في الأول والآخر وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❁ ❁ ❁